

المكتبة الإلكترونية لفضيلة الشيخ
وليد بن راشد السعيدان
فوائد وعبر من سورة الحجرات
الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ وليد بن راشد السعيدان
www.alsaeedan.net
@alsaadan21
www.alsaeedan.com
t.me/alsadan31
www.youtube.com/user/AlsaeedanTV

الحمدُ للهِ ربِ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومَن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ثُمّ

أمَّا بعد . . .

فامتدادًا لتأمُلاتِنا في كتابِ الله-عزّ وجل- تقومُ، أو تأتي في هذهِ المُحاضرة. وهي نتفٌ من الدروسِ والعِبرِ والفوائد التي ذكرها اللهُ- عزّ وجل- في سورةٍ عظيمةٍ من السورِ المدنية بالإجماعِ، وهي سورةُ الحُجرُات، وسُميت هذه السورة بسورةِ الحُجُرات: نسبةً إلى حُجراتُ ومنازِلِ النبيِّ-صلى اللهُ عليه وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم-.

وقد اختلف العُلماءُ-رحمهُمُ اله تعالى- في سببِ نزولِها، ولكن لسنا بصددِ شرحِ هذهِ السورة باعتبارِ سبب نزولِها، وإنَّما نستنبِطُ منها جُملًا من الفوائِدِ على وجهِ الاختصار.

وهذه السورةُ العظيمة جمعت في جميعَ، أو أكثرَ قيمِ المجتمعِ الإسلامي، والذي ينْبغي تكونُ عليه تلكَ المجتمعاتِ الإسلامية؛ فهي حددت العلاقة بينَّ العبدِ، وبينَ وربه -جلّ وعلا- وبين العبدِ، وبين نبيِّهِ-صلى اللهُ عليه وسلم- وبين العبدِ، وبينّ إخوانهِ المؤمنينَ عامة.

بل إنَّها حدَّدت علاقةَ الدولةِ الإسلامية بغيرها من الدُول، والأفراد بغيرهم ممن قد لا ينتسبُون معهُم في شيءٍ من الدين، وذكرت بها في ثنايا ذلك جُملًا من الآداب العظيمة التي ينبغي أن يقومَ بها كلُّ مُسلم.

ففي الحقيقة هذهِ السوُرة بموضوعاتِها العظيمة الرائعة الرائقة منهجُ دولة يجبُ علينا أن ننفُر آدابها فيما بيننا، وان نتفقَّهَ في معانيها، وأنْ ننظُرَّ في دِلالاتِها حتى نكونَّ مما عبدَ اللهُ–عزّ وجل– على هدىً من كتابه.

وموضوعاتُ هذهِ السورة كثيرة جدًا، وآدابُها، وفوائدُها عظيمة، ومذكورة، لكن حاولتُ أنْ أخْتَصِر الكلامِ في عشرينَ مسألةٍ فقط.

ولعلَّنا إن شاء الله نأتي على هذه المسائلِ في وقتٍ مُختصر حتى نُفرِغَ بقيةِ الوقت هذه الأسئلة في هذه المحاضرة، أو الأسئلة التي أُلقيَّت في أو كُتِبت في مُحاضراتٍ سابقة إن شاءَ الله.

*** المسألة الأولى:**

لقد نادى اللهُ–عزّ وجل– المؤمنيّ بوصفِ الإيمانِ في خمس مواضع من هذهِ السورة.

وهذا مما يدلُّ على فضلِ هذهِ السورة إذ خصصّ اللهُ–عزّ وجل– خمسَ مواضِعَ يُنادي أهلَ الإيمانِ بقولهِ–عزّ وجل–: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحجرات:١].

وقد كثرَ تَكرارُ هذه النداء في سورتين: في سورةِ المائِدة، وفي سورةُ الحجرات، وهذا للتنبيهِ، والدلالةِ على ما يأتي بعدها.

ولذلك يقولُ ابنُ مسعود –رضي اللهُ تعالى عنهُ– وأرضاه يقول: إذا سمعت اللهَ في القرآن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعِي لها سمعَك يعني انتبه؛ فهي إما خيرٌ يأمُرَّك اللهُ–عزّ وجل– به، وإما شرٌ يصرِفُكَ الله–عزّ وجل– أو ينهاكَ عنهُ.

ونِداءُ الأُمَّةِ بهذا الوصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيهِ دِلالةٌ لطيفة، وتنبيهٌ عجيب، وهي أنَّ ما سيُذكرُ بعدها إنَّما هو من مُقتضيات الإيمان، إمَّا من مُقتضياتهِ إيجابًا، أو استحبابًا.

يعني أنَّ من دواعي الإيمان أن تفعلوا هذا، أو أنْ لا تفعلوا هذا؛ فاللهُ-عزّ وجل- لا يُنادي الأمَّة بهذه الصيغة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا، وسيُذكرُ بعدها شيئًا من جُملِ الإيمان، ومُقتضيات الإيمان، ومُتمماتِ الإيمان، ومُكملاتِ، إمَّا تكميلَ إيجاب، وإمَّا تكميلَ استِحباب.

مثل: لو نادَى الواحد مِنَّا المدرسين فقال: يا أيُّها المُدرسون افعلوا كذا، أو لا تفعلوا كذا؛ فإنَّ ما سيذكُرُ بعد هذا النداء يتعلقُ بهِم من بابِ التنبيهِ أنَّ هذا الأمر الذي سيأمرهُم، أو ينهاهُم عنه داخلٌ في مُقتضياتِ وصفهم بالمُدرسين، أو المؤمنين، أو المسلمين.

فإذًا هذا أولُ شيءٍ يجبُ علينا أن نتعرَّف بهذهِ السورة أنَّ جميعَ ما سيذكرهُ الله-عزّ وجل- في هذهِ السورة التي ابتدأها بهذا النداءِ العظيمِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنَّما هو من مُقتضياتِ الإيمان.

ومع استقراءِ موضوعاتِها وجدنا أنَّها مِنْ مقتضياتِ الإيمان الواجبة، وليس فيها شيءٌ مستحب، وإنَّما جميع الآداب التي أدَّبنا الله-عزّ وجل- ودعانا إليها في هذهِ السورة كُلُها من الآدابِ الواجبة التي يُثابُ فاعلُها امتثالًا ويستحقُ العِقابُ تاركوها.

* **المسألة الثانية:**

أولُ أدبٍ افتتحَ اللهُ-عزّ وجل- بهِ هذهِ السورة، هو الأدب معهُ -عزّ وجل- ومع نبيِّهِ-صلى الله عليهِ وسلم- فقالَ اللهُ -تبارك وتعالى-:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الحجرات: ١].

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا يدُلُّنا على جُملٍ من الفوائد:

- **الفائدةُ الأولى**: **حُرمةُ مخالفةِ الدليل**؛ فلا يجوزُ لك أيُّها المسلم أن تسعى مُخالفًا للدليلِ بقولٍ، أو رأيٍ، أو عقلٍ، أو قياس؛ فالدليل هو الميزان، وما سِواهُ من أقوالُ العُلماء، والمذاهِب هو الموزون.

والدليلُ هو الأصل، وما سِواهُ من أقوال الناس، وآرائهم، واجتهاداتِهم هو الفرع، والدليلُ هو السيد، وما سِواهُ هو العبدُ التابعُ، والدليلُ هو المُقدَّم، وهو الأولُ، وما سِواهُ فهو المؤَّخر، وهو الثاني.

فلا يجوزُ أن نُقدِّم على دليلِ الكتابِ، أو السُنةُ الصحيحة، أي: لا يجوزُ أن نُقدِّمَ عليه ماذا؟ رأيًا، ولا قياسًا، ولا عقلًا، ولا أصلًا، ولا عملًا، ولا قاعِدةً، ولا أيِ شيءٍ كائنٍ ما كانَ هذا الشيء.

المُقدَّم هو: الدليل في حياتنا؛ فأيُّ قولٍ خالفَ الكتاب، والسُنة؛ فهو: باطل، وأيُّ قياسٍ خالف الكِتاب، والسُنة؛ فهو: باطل، وأيُّ عملٍ خالفَ الكِتاب، والسُنة؛ فهو: باطل، لأنَّ المُقدَّم هو الدليل، ولا يجوزُ أن نتقدَّم بينَ يدي الله، يعني بين يدي كتابه، وبين يدي نبيِّهِ يعني بينَ يدي سُنتهِ الصحيحة لا نُقدِّمُ عليهِما عقلًا، ولا رأيًا، ولا قياسًا ، ولا غيرَ ذلك.

فالأقوالُ كُلُها موزونةٌ بالدليل، والمذاهِبُ، والآراءُ، والأقيسُةُ، والاجتهادات كُلُها موزونةٌ بالدليل؛ فما وافقَ الدليلُ منها هو الحقُّ المقبولُ المُعتمد الذي يلزمَ العملُ به، وما خالفها؛ فهو الباطلُ الذي يجبُ إلغائهُ، وإخراجهُ عن دائرةِ التشريع.

*وُهنا ننتقِل إلى مسالة التمَّذهُب:

فما حُكمُ التمَّذهُب؟ هل يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتَبِع مذهبًا معيَّنًا كمذهبِ الحنابلة، أو مذهبِ المالكية، أو مذهبِ الشافعية، أو مذهبِ الحنفية، أو غيرها من المذاهبِ الإسلاميةِ المُعتمدة؟

الجواب: فيه خلافٌ بين أهل العِلم-رحمهم الله تعالى- وأصحُّ الأقوال: أنَّ التمَّذهُب أي اتباعِ قولَ إمامٍ مُعين جائز، ليس بمُحرَّمٍ، ولا بواجبٍ إلاَّ فيما خَالَفَ النص.

فأيُّ قولٍ ثبتَ عن هذا الإمام أنَّهُ خالف الدليلَ من الكتاب والسُنة؛ فلا يجوزُ لنا اتباعهُ، فنحنُ في المذهبَ حنابلة، ولكن إذا ثبتَ عندنا أنَّ الحنابلة خالفوا الدليل في هذه المسألة؛ فلا يجوزُ لنا أن نتَّبِعَ الحنابلة، بل نتَّبِعَ الدليل.

فلا يجوزُ أن نُطيعَ أحدًا فيما خالف النص أبدًا، هذا أولُ فائدةً يدلُّ عليها هذا الأدب العظيم، يقولُ الناظم عفا اللهُ عنَّا وعنه:

أطِع الرسولَ، وسلمَّنَّ لقولهِ	إياك لا تُصغي لقولٍ ثاني

فإذًا جميعُ الأقوال، وجميعُ الآراء، إنَّما هي موزونةٌ بالدليل.

- **الفائدةُ الثانية** التي ترجِعُ، أو تضمَّنها هذا النص: وجوبُ هذا النَص، أو الأمورُ المُختلف فيها، والمُتنازع فيها إلى الكتابِ و السُنة.

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩] أي أحسنُ عاقبة.

ويقول اللهُ-عزّ وجل-: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[الشورى:١٠].

فلا يجوزُ لنا أن نتقدَّم في مسائلِ الخلاف بين يدي الكتابِ والسُنة أبدًا؛ فإذا تنازعنا في أمرٍ اقتصادي، أو سياسي، أو اجتماعي، أو عقدي، أو علمي، أو فقهي، أو غيرها من المسائل الشرعية؛ فالواجبُ علينا أن نرُدَ الأمورِ المُتخالفِ فيها إلى الكتابِ والسُنة.

*يقول الإمام الشافعي-رحمه الله تعالى-:

أجمعَ العلماء على أنَّ الرد إلى الله هو الرَّد إلى كتابهِ، وأنَّ الرَّدَ إلى رسول الله هو الرَّدُ إليه نفسُهُ في حياتِه، والردّ إلى سُنته الصحيحة بعدَ وفاتِه-صلى الله عليه وسلم-.

فلا يجوزُ أن نرُدَّ الأمورَ المُتنازِع فيها إلى أقوالِ العُلماءِ، لا، بل لا بُدَّ أن نرُدَّ إلى الدليل، ولا إلى الأهواء، والشهوات، والرغبات، والأذواق، والمواجيد، والمُكاشفات، والخُرافات، والأهازيج، والإشاعات، والإرجافات ، لا، بل نرُدُّ الأمور المُتخالف، المُختلف فيها إلى الكتابِ، والسُنة.

هذا إذا كُنَّا نُريد السلامة في ديننا ودُنيانا ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [النساء:٣٥] لكم في دينُكُم ، ودُنياكُم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٣٥] أي أحسنُ عاقبةً لكُم.

- **الفائـدةُ الثالثـة**: ممـا تـدخُلُ تحـتَ قولـهِ: ﴿لَا تُقَـدِّمُوا بَـيْنَ يَـدَيِ اللَّـهِ وَرَسُولِهِ﴾ وجوبِ التحاكُم إلى كتابِ الله، وسُنة رسوله-صلى الله عليه وسلم- فلا يجوزُ لوليِّ الأمرِ، ولا لغيرِهِ أن يُحكِّم في الناسِ غيرَ شريعةِ الله-عزّ وجل-.

وقد أجمعَ العُلماء على أنَّ من نسبَ شريعةَ الله جُملةً وتفصيلًا، وحَكَّمَ في الناس قوانينِ الشرق، والغرب فإنَّهُ كافرٌ مُرتدٌ خالعٌ رِبطةَ الإسلامِ من عُنُقِهِ بالكُلّية.

لا يجوزُ لنا أن نُقدِّم في الحُكم، والتحاكُمِ غيرَ الكتابِ والسُنة؛ فلا يجوزُ لأحدٍ كائنًا من كان أن يُقررَ في الأُمةِ التحاكُمِ إلى دُستورٍ غربي، أو إلى قانونٍ شرقي، أو إلى أحوالٍ شخصيةٍ مُستمدة من دولِ الكُفُر؛ فعندنا كتاب الله وسُنة رسولهُ-صلى الله عليه وسلم- كافية.

يقولُ اللهُ-عزّ وجل-: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، وفي الآيةِ التي بعدها ﴿الظَّالِمُونَ﴾،وفي الآيةِ التي بعدها ﴿الْفَاسِقُونَ﴾.

متى يكونُ ظُلمًا يكونُ ظُلمًا، وكُفرًا، وفسقًا أكبر؟ ذكرَ العلماء-رحمهم الله تعالى- أنَّ الحاكِمَ بغيرِ ما أنزلَ الله يكونُ كافِرًا في عدةِ حالات:

- الحالةُ الأولى: واضعُ نظامٌ مخالفٌ للكتابِ والسُنة ابتداءً الذي يُقرِرُ للناسِ دستورًا كُفرَّيًا مبنيًا على مخالفة الكتابِ والسُنة هذا كافرٌ، وإنْ ادَّعى أنَّهُ مسلم.

ولا نسالُ عن نيتهِ، وقصدِه؟ أيُريدُ بذلك الدستور مخالفة الكتاب والسُنة، أو تحقيق المصالح، وجلب المصالح، أو دفع المفسد مخالف أم لا؟

كافر، مُرتد، خارج عن مِلة الإسلام بالكُلّية.

- الأمر الثاني: الحاكِمُ بهذا الدُستورِ الحُكمَ المُطلق يُقررهُ في دولتِه، ويوظفُّ القضاةَ لتحكيمه، ويفتحُ المحاكم الدستورية القانونية التي تحكُم بهذا الدستور.

وفي نفسِ الوقت يُحاربُ من يدعو في دولتِهِ إلى شريعة الله، وإلى تطبيقَها، ويزُجُّهُم في السجون، أو يقتُلهُم، أو يُشرّدُهُم ، أو يُعذّبُهم، أو يفصِلُهُم من وظائفهُم، هذا الحاكِمُ الحُكمِ المُطلَّقِ بهذا الدستورِ كافرٌ بإجماعِ أهل السُنة والجماعة خالعٌ رِبطةِ الإسلام من عُنُقِهِ بالكُلَّية.

- الحالةُ الثالثة: الذي يحُكمُ بغيرِ ما أنزلَ الله، وهو مُعتقِدٌ استحلال الحُكم بغير ما أنزلَ الله؛ فالمستحلُّ قلبيًا، واعتقاديًا أنَّهُ يجوزُ لهُ أن يحكُمَ بغيرِ ما أنزلَ الله؛ فإنَّهُ كافرٌ مرتدٌ بإجماعِ العُلماء.

لأنَّ استحلال المُحرَّم من الدينِ بالضرورة رِدَّةٌ، وكُفُر.

- الحالةُ الرابعة: أن يحكُمَ بغيرِ ما أنزلَ الله، وهو مُعتقدٌ في قرارةِ نفسِهِ أنَّ الحُكمَ بغيرِ ما أنزلَ الله يُساوي، ولو مُجرَّد مساواة الحُكُم بما أنزلَّ الله؛ فمن اعتقد مساواة الحُكم بغيرِ ما أنزلَ الله بغيرِ ما أنزَلَ الله بالحُكمِ بما أنزلَ الله؛ فإنَّهُ كافرٌ مرتدٌ بإجماعِ أهلِ السُنة والجماعة.

- الحالة الخامسة: الذي يحكمُ بغيرِ ما أنزلَ الله في بعضِ المسائل، ليس بكُلِها، وإنَّما في مسألة، أو مسألتين، أو ثلاث، أو أقل، أو أكثر، ولكن لا يصلُ بهِ إلى حدِ الديمومةِ، والاستمرار، وهو مُعتقِدٌ أنَّهُ مُرتكِبٌ للحرام، وأنَّ حُكمَهُ بما أنزل الله كان أوجبَّ عليه، ولكن خالف الحُكمَ بما أنزل الله.

وحكم بغيرِ ما أنزل الله في هذه المسألة المُعينة مع اعتقادِهِ لحُرمتِه، حُرمةِ ما يفعل، ولكن غلبتهُ شهوته، أو أُغريَّ بالرِشوة، أو أُغريَّ بمنصِب، وقال في شريعةِ الله بغيرِ ما أنزلَ الله؛ فهذه الحالة الوحيدة التي لا يذكرُ فيها هذا الحاكم، ولكنَّهُ يُعتبرُ فاسِقًا من الفُساق.

إذًا كلُ هذه الحالات تدخلُ تحت التقدُّمِ بينَ يدي الله ورسوله؛ فشريعة الله لا يجوزُ أن نتقدَّم عليها بشيء ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لا حُكمًا، ولا دُستورًا، ولا قانونًا، ولا نِظامًا، ولا منهجًا، ولا طريقةً، ولا تعميمًا، الحاكمية المُطلقة لله-عزّ وجل- ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، اللهُ هو الحاكمُ الحُكمَ المُطلق كونًا، وهو الحاكِمُ الحُكمَ المُطلق شرعًا.

من الذي حكم كونًا أن تَخرُجَ الشمسُ من مغربها أهُم البشر، أم الله؟ الله، هل يتدخَّل البشر في هذا الحكمِ الكوْني؟ الجواب: لا.

فكما أنَّ البشر لا مدخلَّ لهم في أحكام الله الكونية؛ فكذلك أيضًا لا مدخل لهم في أحكام الله الشرعية؛ فلا يجوزُ لولي الأمرِ، ولا لوزرائِه، ولا لمن تحتَ يدهِ، ولا يجوزُ للقُضاةِ عن بكرة أبيهم أن يحكموا بغيرِ ما أنزلَ الله-عزّ وجل-: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ فحكمُ اللهِ-عزّ وجلَ- هو خيرُ الأحكامْ، وأفضل الأحكامْ، وأحسنُ الأحكامِ على الإطلاق.

ويدخلُ في التقدُّمِ بينَّ يدي الله، ورسوله تحاكمُ كثيرٍ من الأعراب إلى سواليف البادية، وإلى عاداتهم، وتقاليدهِم، وأعرافهم التي يُحكمُها كبرائهُم في قبيلتهم.

إذا كانت هذه الأحكام البادية الأعرابية الجاهلية مخالفة للكتاب والسُنة؛ فلا يجوزُ لأفرادِ هذه القبيلة أن يُقدِّموها على حُكمِ الله-عزّ وجل- وحكمِ رسولهِ-صلى الله عليه وسلم-.

قاعدة عظيمة تؤَّيدُ، وتؤَّكدُ، وتنصُّ، وتُحقِقُ أنَّ السُلطة التشريعية حقًا لله-عزّ وجل- ولا حقًا لأحدٍ أن يُشرِّعُ للناسِ شيئًا، التشريع كامل:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات:١] لا تحكموا حتى يحكُمَ اللهُ ورسوله، ولا تنطِقوا حتى ينطقَ القرآن والسُنة، ولا تُفتوا حتى يُفتي الكتابُ والسُنة.

فنحنُّ في أقوالِنا، ومذاهِبنا، واجتهاداتنا، وآرائِنا تبعٌ للدليل، لا نتجاوزُ الدليل قيدَ أُمُلَّه، ولا نحيدُ عن مُقتضى الدليل، ولا هُدى الدليل طرفةَ عين، نسألُ الله أن يُثبتنا على ذلك.

وإنَّ من الأشياء التي يعرِفُ بها العلماءُ قُربَّ زمانِ رفعِ القرآنِ إلى الله: عدمُ التحاكُمِ بالقرآن، إذا هجرَ الناسُ كتابَ الله، فلن يعودوا يقرأونَه، ولا يتفقَّهونَ فيهِ، ولا يتحاكمونَّ إليهِ، ولا يتدبرونُه، وهذا سيكونُ في آخرِ الزمانِ؛ فإنَّ الله يرفعُ كتابهُ من بين ظهراني النفس.

يرفعُهُ مِن المصاحف؛ فيفتحُ الناسُ مصاحِفهُم؛ فلا يجدون إلا أوراقًا ليس فيها كلامًا، ويرفعه الله-عزّ وجل- من صدور الناس؛ فيجدُ الحافِظُ أنَّهُ نسيَ كتابَ الله الذي كان يُرتِلُهُ، ويتغنى به، ويقرأُه في الصلاة، متى؟ إذا تركَ الناسُ الحُكمَ بكتابِ الله-عزّ وجل-.

وإنَّ كثيرًا من الدُولَ التي تنتسب لكتابِ الله في هذا الزمان قد عطلّت التعطيل المُطلق الحُكم بالكتابِ والسُنة، والتحاكُمِ إليهم.

إذًا هذا أولُ أدبٍ تُربينا عليه هذه السورة أنَّها تُعلِمُنا أنَّ السُلطة التشريعية لله-عزّ وجل- وأنَّ الأحكامُ الشرعية تفتقرُ في ثبوتها للأدلةِ الصحيحة الصريحة.

وعلى ذلك جُملٌ كثيرة من القواعد التي يُقرِّرُها الفقهاءُ، والأُصوليّون، والمُحدثون مُنبثقة من أنَّ السُلطة التشريعية حقٌ من حقوقِ الله الخالصة؛ فكما أنَّهُ لا ربَ لهذا العالمِ إلاَّ الله، ولا حاكمِ كونًا لهذا العالمِ إلاَّ الله، ولا خالقَ لشيءٍ من مُفرداتِ هذا العالمِ إلا الله، ولا إله إلا الله؛ فكذلك أيضًا لا حاكمُ إلاَّ الله-عزّ وجل-.

***الأدبُ الثاني من هذه السورة:**

الأدبُ مع النبيِّ-صلى اللهُ عليه وسلم-:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢] الآيات، هذا أدبٌ يؤُدبنُا الله-عزّ وجل- به، ويُعرِّفُنا كيفيةَ التعامُلِ مع نبيِهِ-صلى اللهُ عليه وسلم-.

يجبُ عندهُ في حياتهِ ألاَّ تُرفعُ الأصواتُ في مجلِسِه، يجبُ على من يُجالسه ألاَّ يرفعوا أصواتهِم فوقَ صوتِه؛ فإذا نطقْ تسكُتُ الأصوات، ويسكتُ الكلام، ولا تنطِقُ الأفواهُ ببنت شفه، لأنَّ المُتكلِّم هو رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وإذا ناداهُ أحدٌ، وهو حي؛ فالواجبُ عليه أن يَغُضَّ صوتهُ ، وألاَّ يرفع صوتهُ على صوت النبي-صلى الله عليه وسلم-.

وهذهِ السورة نزلت في وفدِ بني تميم لمَّا جاءوا إلى النبي -صلى اللهُ عليه وسلم- وهو في الحُجرات؛ فصاروا يُريدُونهُ حتى يُعلنوا إسلامهم بين يديه- صلى الله عليه وسلم- فصار خطيبُهُم يُنادي النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- من وراءِ الحُجرات، وهو في حُجراتِ نسائه، في بعض حُجرات نسائه، حتى نزلت هذهِ السورة يقرؤها عليهم -صلى الله عليه وسلم.

هذا من قِلة الأدب، وإنَّ الذي يرفعُ صوتهُ في المجلس الذي فيه رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- فإنَّه مُتقحِّمٌ لسببٍ يحبُط بهِ عملهُ ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحُجرات:٢].

يقولُ الإمام ابن القيم -رحمهُ الله- في معنى كلامه:

إذا كان مُجرَّدُ رفعِ الصوتِ على صوتهِ يُحبطُ العمل؛ فكيف بالذي ينسفُ سُنتهُ أصلًا؟ وكيف بالذي يعتقد أنَّ سُنته ليست بحُجةٍ لا في صدرٍ، ولا ورد؟ وكيف بالذي إذا سمع الحديث، قال: دعكَ من هذا، وأعطنا أقوال الرجال، وأعطنا عقول الرجال، وأعطنا قياسات الرجال، واجتهادات الرجال كيف بمن إذا سمع الحُكم من بين شفتي النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلم صحة إسناده يرفُضُهُ، وتكرهُهُ نفسهُ، وتأباهُ روحه؟ لأنَّهُ خالفَ اجتهاده، وخالف قوله الذي يُرجُحُه.

هذا من أعظم الأسباب التي تحبطُ بها الأعمال، والإنسان لا يشعر﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحُجرات:٢].

وأن نادينَا دينُ اللهُ -عزّ وجل- بهِ أنَّ سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حُجة، وأن ندينَ دينُ الله -عزّ وجل- به، ونسألُ الله أن نلقى ربنا عليه أن

سُنتهُ حُجة لا كما يقوله المُعتزلة، والخوارج عليهم من الله ما يستحِقونه، فإنهم يقولون: إنَّ السُنة ليست بحُجة، وأن لزمنا دينُ الله–عزّ وجل– به .

أنَّ كُلَّ قولٍ خالف قول رسول الله–صلى الله عليه وسلم– فهو قولٌ باطل حتى، وإن قالهُ بعضُ الصحابة، فقول هذا الصحابي: لا يصح، لأنهُ خالف المرفوع للنبي–صلى الله عليه وسلم–.

وقد أجمع العلماء عن بَكرةِ أبيهم أنَّ! قول الصحابي ليس بحُجة، ولا يجوز اعتماده، وقبوله إذا خالف المنصوص عن النبي–صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم– وإن لزمنا دينُ الله–عزّ وجل– به أن كلَّ قاعدةٍ قُبلت على خلاف النص؛ فهي باطلة.

وأنَّ كُلَّ عملٍ أو قياسٍ، أو اجتهادٍ، أو أصلٍ، أو ضابطٍ قُرر على خلاف النص؛ فإنَّه باطل، ووالله، ولأمرُ الله، وأُقْسِمُ بالله لهدمُ ألف قاعدة خيرٌ لنا من أن نُعطل دِلالة حديثٍ واحد، ولهدمُ ألف أصل قررهُ كثيرٍ من العُلماء

واللهُ أحقُ إلى قلوبنا، وأيسرُ على نفوسنا من أن نُهمِل دلالة عُشرٌ من عِشار نصٍ واحد من السُنة.

فالسُنة نضعُها تاجًا على رؤوسنا نتحاكمُ إليها، ونجعلُها محلًا لفصل النزاع، ونهتدي بهدِيّها، ونقتفي أثرها.

" مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ ".

فلزِمَ دينُ الله-عزّ وجل- به وجوبُ مجاهدة من دعانا إلى غير سُنة رسول الله-صلى الله عليه وسلم- نُجاهدهُ بأيدينا إن استطعنا، فإن لم نستطع فنجاهدهُ بمحاضراتنا، ودروسنا، ومؤلفاتنا، وكلامنا، وتوجيهنا، أي بألسنتنا؛ فإن لم نستطع؛ فلا أقل من أن نُجاهدُه بقلوبنا.

كلُ شيءٍ خالف السُنة؛ فهو باطل، حتى لا نرفعَ صوتنا على صوتِ النبي-صلى الله عليه وسلم- فإن قلت: وقد مات رسولُ الله؛ فكيف نرفع أصواتنا على صوته؟ نقول: رفعُ الأصواتِ عند قراءة حديثه، وعند الاستدلال بحديثه.

إذا سمعت القارئ يقول: قال رسول الله؛ فهي تلفظ استمع ماذا يقول؟ وإذا قال لك المُحتد المناظر: ودليلي قول رسول الله: فقل: سمعًا وطاعة لرسول الله.

إياك أن تُماحِض، ولا أن تُجادل بالباطل:﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال:٦].

هذا حقٌ من حقوقِ رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أن نُقدِّم قولهُ على كلِ قول، وحقوقه-صلى الله عليه وسلم- كثيرة تُطلبُ في غيرِ هذا الموضع.

***الأدب الثالث:**

مما أدَّبنا الله عليه في هذه السورة **وجوبُ التثبُتِ من الأخبار** إذا كان مصادرُها الفُسَّاق، قال اللهُ -عزّ وجل-:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾.

هذا النداء الثالث الآن:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾ [الحجرات:١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا﴾ [الحجرات:٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ﴾[الحجرات:٥].

أدب ثالث، ولا تستقيمُ أحوالِ الأُمَّة الإسلامية إلاَّ بوجوبِ التثَّبُت من هذه الأخطاء، والإرجافات، والإشاعات.

لـمَّ يا ربنا؟ ﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٥].

فوصف اللهُ من يقبلُ الأخبارَ من غيرِ تَثّبُّت، ويعتمدها على عواهِينها من غير تأكُدٍ، ولا تبصُرٍ، ولا تحقيق أنَّهُ يعملُ بجهالة، هذا الرجُل عملَ بجهل.

وما أكثرُ الإشاعات في هذا الزمان، إشاعاتٌ على ولاة الأمر، وإشاعات على العُلماء، وإشاعاتٌ على المجتمعات الإسلامية أفرادًا، وجماعاتٍ؛ فيجبُ عليك إذا جاءك الخبر من مصدرٍ غير موثوق أن تتثبتَ، وأن تتيَّقنَ صِدقَ هذا الخبر.

حتى لا تكونَ ممن يبني أحكامهُ على سفحِ رملٍ، أو على موجِ ماءٍ؛ فذا كُشفت الغُمة؛ فإذا هي أحكامٌ بُنيت على باطل، وما بُنيَّ على الباطل؛ فهو باطل.

ولا حُجةَ لأحدٍ من الناس أن يقول: يقولون سمِعنا: لا هذه ليست بحُجة، لأنَّ الله أمرَّك عنده في وكالة يقولون، وفي وكالةِ سمعنا: تثّبَّتوا .

قال اللهُ -عزّ وجل- وفي قراءةٌ أخرى قال الله-عزّ وجلَّ- :﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات:٥].

والتبيُّن، والتثَّبُت واجبان شرعيان في أخبارِ الفاسق، وما أكثرَ هذه الأخبار التي تصلُنا من هُنا، وهُناك لاسيَّما مع انفتاح وسائل التواصل الاجتماعي على الناس: بلاك بيري، واتسآب، مواقع، أسماء مُستعارة.

تأتيك أخبارًا تزُّخُ عليك كزخِ المطر في رياح الصيف لا تدري ما صدقُها من كذِبها، ولذلك لا يجوزُ لك أن تنقُلَّ أيَّ خبر عن أي طائفةٍ كانت إلا بعد أن تتيَّقن من مصداقية، وصحةِ هذا الخبر.

هذا لزمُنا دينُ اللهُ عزّ وجل- به، وواجبٌ شرعيٌ لا يجوزُ الإخلالُ به، وإنَّ أيّ مُصيبةٍ تترتبُ على نقلك لهذا الخبر من غير تثَبُّت؛ فأنت مُشاركٌ في الإثم.

وأنت مُشاركٌ في هذه المُصيبة، حتى، ولو كانت بقدرِ نفس؛ فأنت كِفلٌ من دمِها يوم القيامة، لأنَّك نقلت أخبارًا لم تتثبت منها، ولم تيَّقن من صحتِها.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:٦٠]، وَالْمُرْجِفُونَ: هم الذين ينقلون الإشاعات التي تُخيفَ قلوبِ المؤمنين من غيرِ تثَبُّت، أو تيَّقُن، ولا تأثُر.

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب:٦١] هذا هو جزائهُم؛ فلا يجوزُ لنا أن ننقُلَّ أي خبر إلا بعد أن نتثَبت، وأنْ نتيَّقن صحتِهِ لا سيَّما إذا كان خبرًا يتضَمنُّ حُكمًا شرعيًا كحديثٍ عن النبيَّ-صلى الله عليه وسلم-.

انتبهوا! الرافضة لعنهم الله في هذا الزمان وجدوا تلك الوسائل مجالًا فسيحًا يبُثونَّ فيها موضوعاتِهم من الأحاديث التي يكذبون فيها على النبي-صلى الله عليه وسلم-.

فلا تنقُل أي حديثٍ لمُجرَّدِ إعجابِكَ بثوابِه، أو قناعةِ نفسِك بصحته؛ فإنَّك لست من أهل العلم، لا بُدَّ أن ترُّد هذا الأمر إلى أهل العلم، حتى إذا نقلتهُ تنقُلهُ على وجهٍ صحيح؛ وإلا فأنتَّ أحدُ الكاذبين.

يقولُ النبي –صلى الله عليه وسلم–: "من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".

ويقول–صلى الله عليه وسلم–: "من كذب عليَّ متعمداً، مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بحَدِيثٍ ، يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ " فيجبُ عليك أن تتثَّبت من صحةِ هذه الأخبار.

في صحيح الإمام البُخاري من حديثِ أبي هُريرة–رضي الله عنه– قال: قال– صلى الله عليه وسلم–:" يوُشِكُ أن يأتيَّ عليَّ"، قال–صلى الله عليه وعلى آله وصحبِهِ وسلم– :" يَأتِيكُمْ أقوامٌ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوهُ أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ، وَإِيَّاهُمْ لا يُضِلُّونَكم، ولا يَفْتِنُونَكم" ...

هذا الزمانُ قد تحقَقَّ فيهِ كثيرٌ من هذا، أحاديث تُنقَل من هاهُنا، وهُناك، وليس لها خِطابٌ، ولا زِمامٌ، ولا سندٌ حتى يُمكن أصلًا دراستُه؛ فيجبُ عليك أن نتثَّبت الأخبار حتى يُمكن أن ننقُلها على عواهنها.

***ومن آدابِ هذه السورةِ أيضًا:**

التذكير: **تذكيرُ المؤمنين بعِظَمِ الإيمان في هذهِ القلوب**، وأنَّ قضية الإيمان إنَّما هي توفيقٌ من الله –عزّ وجل–.

فاللهُ–عزَّ وجلَّ– هو الذي حبَبَّ إلينا الإيمان، وهو الذي زيَّنهُ في قلوبِنا بينما كرَّهَ الإيمان لكثيرٍ من خلقِه، أوليسَ هُناك أُناسٌ يحاربون الإيمان، والمؤمنين؟ بلى: من الذي كرَّه الإيمانَ في قلوبهم؟ إنما هو الله.

فليس بينك، وبين الله نسب كونهُ يوفقك للإيمان، ويُحببك للإيمان، ويُحبِبُ، ويُزيِّنهُ في قلبِك، ويجعلُك من المؤمنين، هذا من أعظم الفضائل التي يُعطيها اللهُ-عزَّ وجلَّ- أحدًا من الناس.

هذه أعظم كرامة أنْ يوفقك اللهُ للإيمان، وأنْ يجعلك من المؤمنين، وأنْ يُهديك، وأن يأخُذ بناصيتك ليجعلك من أهل الإيمان، والإسلام المُحققينَ للإيمانِ في حياتهم، هذا من أعظمِ الفضائلِ من عند الله-عزَّ وجل-.

ليست القضية أن يُعطيَّك اللهُ مالًا، ولا منصِبًا، ولا عِزًا، ولا حسبًا، ولا جاهًا؛ فكلُّ ذلك ينتهي بموتك، لكنَّ الإيمان هو الذي يبقى معك حتى، ولو بعد مماتك.

فإذَا اللهُ هو الذي زيَّن الإيمان في قلوبِنا، وهو الذي حببهُ إلينا؛ فإن قُلت: ولماذا جاء اللهُ-عزَّ وجل- بهذا الأمر بين تلك الآداب؟ نقول: لأنَّ هذه الآداب من مُقتضيات الإيمان.

الذي يُحبُّ هذه الآداب، ويتَّبِع هذه الآداب، ويقومُ بواجبِ هذه الآداب؛ فإنَّهُ المؤمن الذي يؤمن بالله ربًا، وبالنبي-صلى الله عليه وسلم- نبيًا، وبالإسلامِ دينًا.

***ومن آداب هذه السورةِ أيضًا:**

الترغيبُ، **والحثُّ على الإصلاح بين المتخاصمين** مهما كانت خصومتهُم، يجبُ عليك أن نُصلِحَّ بينَّ المُتخاصمين، يجبُ عليك أيُّها المسلم إذا سمعت خصومةً بين جماعاتٍ، أو طوائِفَ، أو أفراد أن تتقيَّ الله- عزَّ وجل- في الإصلاح بينهم متى استطعت سبيلا.

فالسعيُّ في الإصلاح بين المتخاصمين من أعظم الأعمال التي يُحبُها اللهُ- عزَّ وجل-.

يقولُ اللهُ-عزَّ وجل-: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٤].

أجر عظيم يؤتيهِ اللهُ-عزّ وجل- لمن سعى في الإصلاحِ بين المتخاصمين. لا ينبغي للمسلم أن يعيش على هامشية الإسلام فقط، بل لا بدُّ أن يكون لهُ دور في هذا المجتمع يُصَّلح بينَّ متخاصمين، يؤَّلِف بين قلبين مُتنافرين.

وهذا أمرٌ عام: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]؛ فإذًا يجبُ علينا أن نُصلح بين الطائفتين المُقتتلتين.

الإصلاحُ بينَّ الزوجين: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء:١٢٨]، ثم أعطانا اللهُ قاعدةً في الصُلح: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨].

والمُتقرِّرُ في قواعد الفقهاءِ بالإجماع، أنَّ الأصل في الصُلحِ الحلُّ، والإباحة، إلاَّ صُلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّمَ حلالًا.

بل إنَّ الشريعة أجازت، ولو الكذِب في مسألة الصُلح، إذا لم تنفع المعاريض؛ فيجوزُ لك أن تكذب بما يتحقق بهِ الإصلاح، ولذلك يقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: "لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَقُولُ خَيْرًا أَوْ يَنْمِي خَيْرًا".

فإذا كذبت بين المتخاصمين كذبًا تقصِدُ بهِ تأليفَ قلوبهما، وإزالة الشحناء، والبغضاء بينهما؛ فأنت مُحسنٌ، لست مُسيئًا في ذلك.

أمَّا أن تعلم أن فُلانًا، وفُلانًا بينهما خصومة وتتركهما للزمن يصلِحُ بينهما الزمن ، تُصلِحُهما الدنيا، تؤدبهما الدنيا، وتلك العبارات التي تسدُّ على المؤمنين باب الإصلاح؛ فليس هذا من صِفاتِ أهلِ الإيمان أبدًا.

بل إنَّ الشريعة أجازت في بعضِ مصارِفِ الزكاة أنَّ من تحملَّ مالًا بسببِ الصُلحِ بين المتخاصمين أن يأخُذ من الزكاة بقدر ما تَحمَّل.

كما تحَّمل قبيصة ابن مُخارق الهلالي-رضي اللهُ تعالى عنه- حمالةٍ في الإصلاح بين قبيلتين؛ فقال-رضي اللهُ عنه-: تحملَّتُ حمالةً؛ فأتيتُ النبي-صلى الله عليه وسلم- في أسألهُ فيها، يعني أسألهُ يقضيَّ عني فيها؛ فقال أقِم عندنا يا قبيصة حتى تأتينا الصدقة؛ فنأمُرَّ لك بها.

هذا من اهتمام الشريعة للإصلاح بين المتخاصمين، لِمَّ؟ لأن من مقاصد الشريعة الإسلامية ألا نتقاطع، وألاَّ نتدابر، وألَّا نتباغض، وألاّ يحقِرُ بعضنا بعضًا.

ولذلك قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: "لَا يحلُّ لمسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَلاَمْ".

وذكر في الحديث الآخر:"المَؤمِنَ إذاَ هَجَرَ المؤمِنَ سَنَةً فَكأَّنهُ سَفْكِ دَمِهِ؛ فكأنَّهُ قتله".

فالمجتمعُ الإسلامي لا يقومُ بناؤهُ إلاَّ على أُناسٌ متوادين، مُتحابِّين، مُتآلفين، مُتقاربين مؤتلفين، لا مُختلفينَ، مُتحابينَ، لا متباغضين، مُتقاربين لا مُتباعدين، ولا مُتنافرين.

هكذا يقوم بناءُ المُجتمع الإسلامي:"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بعْضُهُ بَعْضًا"، وشَبَّك بين أصابعهِ–صلى الله عليه وسلم–.

يقولُ النبي–صلى الله عليه وسلم–:" مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى " يعني أن عضوًا من الجسد إذا مَرِض سهِر الجسدُ كله؛ فالمريض قد لا ينام، المريض في عضوٍ واحد قد لا ينام، يبقى جسدهُ ساهِرًا يُراعي هذا العُضو"تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِ الْحُمَّى وَ السَّهَرِ " .

* ومن آدابِ هذه السورةِ ، وعِبرِها، وفوائِدها:

وجوبُ قِتالُ البغاة مع الإمام، مع إمام المسلمين.

والبُغاةُ : هم الذين يخرجون على ولي أمر المسلمين يريدون الفساد، والإفسادَ في البلد؛ فإن تمنَّعت طائفةٌ، وخرجت عن نظامِ ولي الأمر، وعن حكم الدولة، وأرادوا خلعهُ، ومعهُم أسلحتهُم، أو منعتهُم، أو قوتهم.

فإنَّ وليَّ الأمر، بمن تحت يده يجب عليهِم أن يُقفوا في وجه هؤلاء البُغاة وقفة رجُلٍ واحد.

واللهُ–عزَّ وجل– :﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات:٩] ، ولا يجوز لأحدٍ أن يتخلَّف عن القتال تحت رايةَ ولي الأمرِ إذا دعاهُ وليُّ الأمر أو عيَّنه.

*** ومن فوائدِ هذه السورةِ أيضًا:**

التذكير بأخُوةِ الإيمان:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

هذه الأخوَّة ليست مبنيةً على قُربٍ، أو على بُعد؛ فالمؤمنُ في أطراف الصين هو أخي في الله–عزّ وجل– مع تباعد الأمصار، وانقطاع الديار فيما بيننا، وبينه ، وأخي ابنُ أُمي، وأبي إذا كان كافرًا بالدين؛ فليس أخي.

فإذًا الأخوة الإيمانية لا يؤثرُ فيها بعدٌ، ولا قُرب، ولا يؤثِرُ فيها وصلٌ، ولا هدم، ولا يؤثرُ فيها حسبٌ، ولا نسب.

فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا سول الله؛ فهو أخونا يجُبُ علينا تجاهُ ما يجبُ على المسلمين فيما بينهُم أن ننصرهُ إذا استنصرنا:﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

هذه الأخوة الإيمانية التي يضربُها الله–عزّ وجل– بيننا، ويُذكرنا بآدابِها في قو﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ ﴾ [التوبة: ٧١].

إذًا هذا أول أدب: الولاية فيما بيننا، الولاية معناها؟ المحبة، والنُصرَّة، أن نُحبَّ إخواننا المؤمنين بقدرِ ما معهم من الإيمان، وأن ننصُرَّهُم إذا استنصرونا، وكانوا في حاجاتنا.

سواءً نُصرةً بالنفس، أو بالسلاح، أو بالكلمة، أو بالجاه، والمنصب، أو بالشفاعةِ الحسنة، أو بغيرها بما فتحهُ اللهُ علينا من نعم، وفضله.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

هذه هي العلاقة التي يجبُ علينا أن تقوم قوتُنا الإيمانية تجاهها يقولُ الله–عزّ وجل–: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢]، ويقولُ النبي–صلى الله عليه وسلم–: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ" طيب مُقتضاتُها: "لَا يَظْلِمُهُ" لا في نفسٍ، ولا في عِرضٍ، ولا في مال، "وَلَا يُسْلِمُهُ" يعني لا يُسلمه لعدوهِ، ولا للمخاطر التي تحفُهُ، "وَلَا يَخْذُلُهُ" في حالةِ ضعفه، وقوته، في حالة ضعفِك، وقوتِك إياك أنْ تخذِله،""وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ".

أو كما قال–صلى الله عليه وسلم–: "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ : إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ, وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ, وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعه وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ ".

هذه حقوق المسلم على المسلم أن نتآمر فيما بيننا بالمعروف، وأن نتناهى عن المنكر من حقِ إخواننا علينا إذا رأينا عليهم شيئًا من المخالفات الشرعية، أو التقصير أن نُذَّكرهُم، وأن نأمُرَّهُم فيما بيننا، وألاّ نكون كبني إسرائيل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩] ومُقتضيات الأخُوَّةِ الإيمانية كثيرة.

* **ومن فوائدِ هذه السورة**، ومما تُربينا عليه أيضًا:

النهيُّ عن السخرية بإخواننا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات:١١].

آداب كثيرة كُلُّها يجمُعها النهي عن السُخرية بإخوانِكَ المسلمين، إياكَ أن تسخر منهم؟ لا في أجسامِهم، ولا في طولِهم، وقِصَرِهم، ولا في ألوانِهم، وأشكالِهم، ولا في ضعفِهم، وفقرهم.

بل لا يجوزُ للطائعِ أن يسخرَّ بالمعصية التي يرتكبُها، لا تسخر من أخيك حتى في المعصية التي يرتكبُها، لا تُعيِّب أخاك في هذه المعصية، انصحهُ، وأمُرُّهُ بالمعروف، وأنهاه عن المُنكر.

أمَّا أن تُجرِحهُ، وتُعيِّبه بها: "فإنَّ من عيَّبَ أخاهُ بمعصيّةٍ لمْ يَمُتْ حتىَ يَفعلْها"

لا تُجرِّح الناس لا في أنسابِهم، ولا في أعراضِهم، ولا في أموالِهم إياك أن تسخر من احد؟ فلعلَّ هذا الذي جعلتهُ محلًا لسُخريتك خيرٌ من ألفِ رجُلٍ عند الله–عزّ وجل– ما تدري أنت؟ ميزانُ الله–عزّ وجل– غير الموازين البشرية، إياكَ أن تسخر من أحد؟.

ومن السُخرية: التنابُذ بالألقاب كثيرٌ من الناس لا يُنادي أخاه إلا باللقب السيئ اللي يُسميه العامة عيارً، هذا لا يجوز، هذا مُحرَّم لأنهُ من الاحتقار، وليس من طبع المؤمن أن يحتقر، ولا يسخر من إخوانِهِ أبدًا يقول الله–عزّ وجل: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ﴾ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ [التوبة:٧٩].

هذه طائفة من المنافقين قصتهُم أنهُ في غزوة تبوك أمرهُم النبي–صلى الله عليه وسلم– بالصدقة لأنَّ الطريق البعيد، ومفازة، والجو حار، وعلى قلةٍ من موارد الدولة الإسلامية؛ فأمر النبي–صلى الله عليه وسلم– بالصدقة.

فكان بعضُ المؤمنين لا يجدُ إلا شيئًا من فتاتً من الخُبز، وشيئًا من البُر؛ فيأتي بهُ؛ فيجدُ شيئًا يسيرا، ومن المؤمنين من يأتوا بذُهيبة كبيرة، بذهبٍ كبير، أو بعطاءٍ كثير.

في شلة كانوا على جدار المسجد، شلة ما هم إلا أن ينقضوا فقط، شلة مُنافقين ما همهم إلا ينقضون المؤمنين يلمزونهُم، ولذلك توّعدهم الله، وهم طائفةٌ من المنافقين ليس بهم ليس أحدٌ من أهل الإيمان، كلهُم منافقون.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الذين يتطوعون، ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ في هذه الغزوة يعني،﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.

﴿ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعني الذين يأتون بصدقاتٍ كثيرة،﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ يعني الذي يأتون بصدقات صغيرة،﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٧٩].

فإذًا من يسخرُ من عباد الله فإنَّ الله يسخر منه؛ فإن قلت: وهل يوصف الله بالسُخرية؟ أقول: نعم يوصفُ بالسُخرية جزاءًا، ومُقابلة لا ابتداءً، لأنَّها تدلُّ على كمالِ علمِهِ بما قالهُ هذا الساخر، وتدلُّ على كمالِ قدرتهِ بالمُعاقبةِ بالمثل، لا تسخر من الناسِ أبدًا لا في أشكالِهم، ولا في أصواتِهم.

ويدخُل في ذلك كثيرٌ من الإعلاميين الذين يتشَبهون بغيرهِم سُخرية، يتشَّبهون بالمُذيعين، يتشَّبهون بإخوانِهم، يتشَّبهون بالناسِ في حركاتِهم، وأصواتِهم، هؤلاء يسخرون بإخوانهم المؤمنين، وهذا أمرٌ لا يجوز مُحرَّم مُطلقًا.

فإن قُلت: وإذا كان الإنسانُ لا يُعرفُ إلاَّ بهذا اللقب، وأنا في مقام التعريفِ بهِ؛ فإمَّا أن أُعرِّف بهِ، وإمَّا أن يضيع حالهُ على الناس، نقول: هذا يجوز في حالِ الضرورةِ، والحاجة المُلِّحة فقط.

وأمَّا في غيرها من باب الفُكاهات، والنُكات، والقرابيط هذه كلُّ هذا لا يجوز، فإنَّ الأصل في أعراض المؤمنين الحماية، والعصمة.

لا يجوزُ لك أن تلمز أخاك بلقبٍ إلاَّ في مقامِ التعريف، من باب الحاجة، ولذلك لا يزالُ المحدثون يقولون: الأعمش، وهو: سُليمان ابن مهران، لكن كثيرٌ من الناس لا يعرفون سُليمان ابن مهران، ويقولون: الأعمش، والأعمش: هذا عشى في عينيه لا يرى النور في النهارِ كثيرًا.

وكذلك إسماعيل ابن عُلية، وكان يغضب-رحمهُ الله تعالى- ويقول: أنا إسماعيل ابن إبراهيم، ولستُ إسماعيل ابن عُلية، لأنَّ الله-عزّ وجل- يقول:﴿ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب:٤]، ولكن اشتهر بينَّ المُحدّثين أنَّهُ لا يُعرف إلا بإسماعيل ابن عُلية؛ فكان المُحدثون يقولونهُ من باب التعريفِ بهِ، ليس من بابِ لقبٍ عليه، وليس من بابِ تجريحِهِ، ولا تقبيحِه، وإنَّما من باب التعريف فقط، وأما أن تُتخذُ من بابِ الفُكاهات، أو من باب المِزاح؛ فإنَّ هذا مُحرّمٌ لا يجوز.

فإذًا أيُّ نوعٍ من أنواع السُخرية في إخوانك المؤمنين؛ فإنَّهُ محرَّمٌ لا يجوز، تقليد المِشيات، تقليد الأصوات، تقليد الحركات، كلُّ ذلك من الأمور التي لا يجوزُ للمسلم أن يتعاطاها في خاصةِ نفسِهِ.

* ومن الآداب التي تُربينا عليها هذه السورة:

النهيُّ عن سوءِ الظن في إخواننا المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ [الحجرات:١٢]، لِمَّ؟ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

هذا أدبٌ عظيم، ويُقررُّ العلماءُ قاعدة أنَّ الأصل في المسلمين إحسان الظن، لا يجوزُ لك أن تُسيء الظن بأحدٍ من إخوانك المؤمنين إن لم يكُن ثمَّة ريبة، ولم يكُن ثمَّة قرينة ظاهرة توجِبُ سوءَ الظنُ به.

إنَّما لنا الظاهر، واللهُ يتولَّى السرائر من أظهر لنا حُسن الظن أحسنَّا الظنَّ به، ومن أظهر إساءة الظن فيه؛ فإننا نُسيءُ الظنَّ فيه.

لكنَّ الأصل في المسلم البراءة، والأصل في المسلم إحسان الظن فيه، ولذلك يقول السلف-رحمهم الله-:

لا تدع لكلمة أخيك محملًا من الخير تجِدهُ إلا وتحملهُ عليه، حتى ولو كانت كلمتهُ تحتمل تسعة وتسعين محملًا من الشر يعني مرةً واحدة محملًا من خير؛ فإذًا من باب إحسان الظنَّ بهِ أن تحمل كلمتهُ على الخير.

يروى أن سليمان ابن الربيع دخل على الإمام الشافعي-رحمه الله- وهو في سياق الموضوع؛ فقال له سُليمان: قوى اللهُ ضعفك يا إمام؛ فقال: لو قوى اللهُ ضعفي لقتلني، أتُريدُ أن تقتُلني يا سُليمان؟.

تقول: قوى اللهُ ضعفك، هذا يُمازِحهُ؛ فقال: واللهِ ما أدرتُّ هذا المعنى يا إمام قال: أعلمُ أنَّك لو سببتني لما أردتَ إلا الخير، هكذا ينبغي أن تكون العلاقة، حمل المسلمين على إحسان الظن، هذا هو الواجب.

بل أسمعوا هذا الحديث العظيم، لو أننا ذهبنا نُقاتل جيوش الكفرة، نسأل الله أن يجعلهُ قريبًا لا بعيدا، وجاء رجل من الكفرة، وقد رفعنا عليه البندقية لنقتله؛ فقال: أشهدُ أن لا إلا الله وان مُحمدًا رسول الله، قلنا: يجب عليك أن تُبعد صدر البُندقية عنه، أحسن الظن فيه.

سبحان الله خلاص الآن بعد أن نقتله صار مسلم، يا ويلك لو قتلته، يا وويلك هذا قد يحبط عملك، وأنت لا تدري.

في الصحيحين من حديث أُسامَةَ بْنِ زَيْدٍ -رضي الله عنهما- أنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم-: "بَعَثَنَا إِلى الْحُرَقَات من جُهية فَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمّا رأى شُعاع السيف، بينذبح خلاص، قال: أسلَمْتُ لله، أسلمْتُ لله، وفِي رِوَايةْ قَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، قال: فَترَكَهُ صاحِبِي الأَنْصارِيُّ عَنْهُ، وعَلَّوتَهُ بالسِيَّف حتَى بَرِدْت؛ فَجَاءَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فدَعاني؛ فقَالَ: يا أُسامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَما قَالَ: لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ، قَال: قُلْتُ: يا رسُولَ اللهْ إنَّمَا قالَهَا خَوفًا مِن السِلاحْ؛ فَقَال له: أَفلا شَقَقْتَها عن قلبِهِ حتى تَعلمَ أقَالها، أم لا؟ (هو قال: لا إله إلا الله، أنت الآن كذَّبَت لسانه، لكن هل تستطيع أن ُ تُكذَّبَ قلبه) أفلا شَقَقتها عن قلبِهِ حتى تعلمَ أنَّ القلب قَالها صِدقّا، أو كذبًا؟ كيفَ تَفْعلُ بلا إلهَ إلاَّ الله إذا جَاءتك يومَ القيامة؟ قال: قلت يا رَسوُلَ الله استغفر لي، قال: فَجَعلَ لا يزيدُهُ على أن يقول لهُ: يا أُسامة كَيفَ تفعلُ بلا إله إلاَّ الله إذا جَاءتْ يومَ القِيامَةْ؟ (وهو من السابقين الأولِّين من المُهاجرين) قال: ما زالَ يَكررُّها عليَّ حَتى تمنيت أني لو أسلمتُ يومئذٍ" (يقول: ليتني ما أسلمت إلا ذاك اليوم فالإسلامُ كفارةٌ لما قبلهُ).

واسمع إلى الحديث الثاني في الصحيحين من حديث المِقدادُ ابن الأسود- رضي الله عنهُ-: "قُلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنْ الْمُشرِّكِينَ؛ فَقَاتَلَنِي فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ؛ فَقَطَعَهَا (إيده قدامه الآن، والدم ينزف) ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ فَقَالَ أَسْلَمْتُ لِلَّهِ، أَسْلَمْتُ لِلَّهِ أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا !(إيش رأيكم لو صار لواحد منا؟ إحسان الظن واجب توه

مسلم الحين فكيفه بإحسان الظن فيمن أصلهُ الإسلام أصلًا) قَالَ:لَا تَقْتُلْهُ (هوه بيعيد الكلام) قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي ثُمَّ قَالَهَا بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا، قَالَ: لَا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ ".

كلامٌ خطير؛ فلا يجوزُ أن نعتدي على أحدٍ بمُجردِ سوءُ الظن، الواجب إحسان الظن في المسلمين، ولا تُحقق أنا أنصحك إذا جاءك ظن أن تستعيذَ بالله-عزّ وجل- منهُ، ولا تُحقِق، لا تُحقق، إيش معناها؟ يعني لا تبحث لا تُصدِّق نفسك، لا تُصدِّق شيطانك.

في صحيح الإمام مسلم من حديث جابر-رضي الله عنه-قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: " إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ "

بابُ سوْءِ الظن من أعظم ما يُوجِبُ التحريش، لا تُحرِش لا تفتح بابًا للشيطان في إساءة الظنون.

(أنا يعجبني كُنا مع واحدٍ من الإخوان في بعض المناطق المجاورة بدورة شرعية؛ فكان معي خرج معي من المسجد إمام المسجد، والمؤذنين، ومررنا على بيتَ إنسانٍ سيارتهُ برا؛ فقال المؤذن قال: وسط البيت، ولا صلى معنا، قال: يمكنه وقف سيارتهُ، وراح مع واحد يا سلام! أنا أعجبني هذا الموقف كثيرًا، يمكن ترى ما هو بصح، يمكنه بوسط البيت قاعد لكنا لا نُحقق، ولا نظرُ).

حاول أن تحمِل أحوال إخوانِكَ، وتصرفاتُهم على خير المحامل حتى لا تجِدَ بقلبك عليهم شيئًا من الضغينة، والحقد، والبغضاء، والعداوة، هذه تربية، تربية عظيمة، تربية قرآنية ، لكن من يفعل كذلك.

فلان يقصد، فلان يقصد بأنا أصبحنا دكاترة في تفسير المقاصد، فلان يقصد كذا، فلان يقصد أنه يبي فلوس، فلان يقصد إنه يبي كذا ، إيه فلان، هذا يقصد كذا، هذا ما عنده إلا أطيعوا الحاكم أطيعوا الحاكم، هذا شكاك، هذا ما عنده إلا الفتاوى اللي تنفع ولاة الأمر، ولا عنده.

إساءة الظن! إساءة الظن في العُلماء، إساءة الظن في الوُلاة، وإساءة في عامة الناس، كلُّ هذا من الأمور المُحرَّمة.

*** ومما تُربيُنا عليه هذه السورة أيضًا:**

النهيُّ عن الغيبة، وما أدراكَ ما الغيبة.

الغيبة: ذِكرُكَ أخاكَ بما يكره، قال: "قلتُ يا رَسُولَ اللَّهُ : أَفرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّ".

وأجمع العُلماء على أنَّ الغيبةَ كبيرةٌ من كبائرِ الذنوب، وقال العُلماءُ: الغيبةُ أعظمُ في ميزان اللهِ من الزنا، قالوا ليه؟ قال: لأنَّ الزاني إذا تابَ بينهُ، وبين الله تابَ اللهُ عليه، وأمَّا المُغتاب إذا تابَ فيما بينهُ، وبين الله لا يتوبُ اللهُ عليه حتى يُحلِّلهُ صاحبهُ، لأنَّ الغيبة من حقوق الآدميين.

بل إنَّ ابن تيمية–رحمهُ الله– يختار أنَّ ما كان من قبيلِ حقوقِ الآدميين؛ فلا يُغفر حتى بالشهادة، حتى إن مات الإنسانُ شهيد؛ فاللهُ لا يغفله.

لقول النبي–صلى الله عليه وسلم–: " يُغْفَرُ لِلذَّهيبِ عِنْدَ أَلِ دُفعةِ من دَمِهِ كُلُّ ذَنْبِهِ إِلاَّ الدَّيْنَ".

ليه الدين؟ قال: لأنَّهُ حقٌ من حقوق الآدميين؛ فإذًا هذا مثال، وليس حق؛ فكما أنَّ الله لا يغفِرُ حقوق الآدميين بالشهادة إذا كانت حِسيَّة؛ فكذلك لا يغفرُها إذا كانت معنوية.

هذا هو الذي جعل الغيبة أعظم من الزنا من هذا الملحظ فقط، الغيبة أعظم من الزِنا، وكِلاهُما كبيرة من كبائر الذنوب.

يقول النبيُّ–صلى اللهُ عليه وسلم–: "رأيَّتُ ليلةَ أُسريَّ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ "

ويقول النبيُّ–صلى الله عليه وسلم–: "ألاَ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا " لِيُبلِّغُ الشاهِد الغائب.

ومِنْ أَرْبَى الرِّبَا كما قَالَ–عليهِ الصلاةِ والسلام–: "وَأَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَتُكَ فِي عِرْضِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ"، هذا من أعظم أبواب الربا، وهو: الغيبة، إذًا الغيبة من أعظم أبوابِ الربا، والعياذُ بالله.

مجالِس الناس الآن كثُر فيها الغيبة، وكثُر فيها القيل، والقال، وكثُر فيها أكلُّ الأعراضِ بالباطل؛ فيجبُ على الإنسان أن يُنكر، أو يَخرُج.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام:٦٨].

طيب، وإذا جلست يعني الجلوس مع الربا إِنَّكُمْ إِذًا مثلهُم، يعني الجلوس مع الربا: إنَّكم إذًا مثلُهُم.

*** وممَّا تؤدِبُنا عليه هذه السورة:**

وأنا أحاول الاختصار كثيرًا **النهيُّ عن التجسُس** ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات:١٢].

وهذا الموروث قبل الغيبة لأن هذا في الترتيب القُرآني، ولكن زلت عيني عنه فاعتذر إليك، قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات:١٢].

والتجسُس: هو تتبُعِ أحوال الناس لاكتشاف بواطنهم من غير ما ريبة، هذا هو التجسُس، والتحسُس، ولا يجوز، يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-:" وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا ".

ويدخُلُ في ذلك من يجلس أمام العلماء في محاضراتِهم لتسجيلِ كلامِهم، ثمَّ الرَفعُ بهِ على عواهِنِهِ لولُاةِ الأمر، هذا أمرٌ لا يجوز مُطلقًا، حرام هذا من التجسُس، لا ما في ريبة.

الحمد لله شيخًا يعبُد الله، ويأمُر بتقوى الله، إيش الريبة اللي تخلي الناس يُسجِلون كلامه، هذا ليس بفاسق، ولا في خطر على الدولة الحمد لله رب العالمين من كلام العُلماء، ولا من دروس العُلماء أصلًا.

العُلماء خيرُ البلاد، وزينةُ البلاد، وتاجُ البلاد؛ فكيفَ نُحقِّقُ سوء الظن في العُلماء، ونتجسس على العُلماء؟ هذا أمرٌ لا يجوز، ومحرَّم.

وما يُكتسبوه من الرواتبِ في هذه الوظيفة بهذا المعنى مُحرَّم، ولا يجوز، هذا منهي عنه نهي شرعي، هذا نهيٌ شرعي.

لكن أمَّا التجسُس مع وجودِ الريبة على أهل الفسق، والخنا، والزِنا، والإرهاب، والتهجير، وهذا هو مكانُك حتى نحْمي بلادنا، وأعرضَنا، وأنفُسنا، وأموالِنا من السطوِ عليها، أو انتهاكِها، التجسُس في هذه الحالة هذا هو موضِعُهُ.

لا يجوزُ للإنسانِ أن ينظُر من خرْقِ بابَ إنسان، لأنَّ هذا من التجسُس، ولو أنَّ صاحب الدارِ رماك بشيءٍ، أو فقأ عينك بشيء؛ فهي عينٌ ظالمة مُعتدية لا ديَّةَ فيها مُطلقًا كما نصَّ عليها النبي -صلى الله عليه وسلم.

وكذلك التجسُس على تليفونات الناس هُناك بعض البرامج يُرَّكبها الإنسان، أو يُنزِّلها على كمبيوتره يسمع من كان قريبًا منهُ، هذا مُحرَّم، ولا يجوز، لا يجوزُ للإنسانِ أن يتجسس على الناس، وأن يستكشِفَ بواطِنهم دع الخلق للخالق يا رجُل.

وأنظُر كيف جمع الخالق بين سوء الظن، والتجسُس، لأنَّ الذي يحمل على التجسس هو سوء الظن، لأنَّك لو سلِمت من سوءِ الظن لسلِمت من التجسس.

فالتجسُس كُلُّه حرام إلا التجسُس في الريبة، إذا وُجِدَّت ريبة، وقرينة فساد ظاهِرة، حينئذٍ نتجسُس على أهلِها، ونتجسُس على أصحابِها، والتجسُس على أصحابُ المُنكرات هذا أمرٌ طيب.

التجسُس على الجيوش الكافِرة يُرسل ولي أمرِ المُسلمين عينًا، أو اثنين يتجسسون على ما يفعلهُ الكُفار حتى نعرِف مواطِنِ قوتهِم، ومواطِنِ ضعفه، طيب هذه هي مواضع التجسُس، أمَّا غيرُها التجسُس فإنَّهُ ممنوع.

لما قيل لابن مسعود (أنظُر كيف التربية؟ كيف رباها النبي -عليه الصلاة والسلام-): "إنَّ فُلاَنٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْراً، فَقَالَ: نُهِيْنَا عَنِ التَّجَسُّسِ".

* **وممَّا تُربينا عليه هذه السورةِ أيضًا:**

التربية على تحقيق الميزان الصحيح بينَّ الناس، ميزان التفاضُلِ.

فالتفاضُلُ بيَنَّنا ليس يكونُ بالأحسابِ، ولا بالأنساب، وإنَّما يكونُ على ميزانِ الإيمانِ بالتقوى بقلبِ لكُلِ واحد منَّا؛ فأكرمُنا عند الله أتقانا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقد اختلفت موازينُ الناس كثيرًا في هذه المسألة:

- فمن الناس من يعتمِدُ الميزانَ الفرعوني، وهو تفضيل بينَ الناس بالمناصب.

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني: لا منصِبَ لهُ، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُخرُف:٥١-٥٢] يُبيِّن: يعني لا يكادُ يُفصِح؛ إذًا جعل ميزان التفضيل بينهُ، وبينَ موسى منصِبهُ.

فما جعل التفاضُل بين الناس المناصب؛ فهو في ميزان العدل بين الناس، هذا خطأ.

لا وزير أفضل من فرَّاش، ولا فرَّاش أفضل من وزير، ولا ملك أفضل من مملوك، ولا مملوك أفضل من ملك، ولا وزير أفضل من موزور، ولا رئيس أفضل من مرؤوس، ولا موزورٌ، ومرؤوس أفضل من أسيادِهِم، ولا عبدٌ أفضلَ من سيد، ولا سيد أفضل من عبد، هذه الاعتبارات غير مُعترف بيها في ميزان الله-عزّ وجل-.

- ومن الناس من يعتمدُ في التفضيل بين الناس الميزان القاروني: وهو التفضيل بالمال؛ فهو رأى أنَّهُ يملك من الخزائنَ ما إنّ مفاتِحهُ لتنوءُ بالعُصبة أولوا القوة، ثُمَّ تكبَّر، وتجبَّر بمالهِ على الله ورأى أنَّهُ أفضل الموجودين حتى دفعهُ ذلك إلى قولهُ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨]. يعني أنَّ الله لا فضلَ لهُ في هذا المال، وإنَّما اكتسبتهُ أنا بجهدي، وقوتي، وخبرتي، وعلمي في وجوه المكان؛ فالذي يرى أن فُلانٍ التاجر أفضل من فُلانٍ الفقير هذا قارونيّ الميزان.
- وهُناك ميزانٌ قُرشي: وهو التفضيل بينَّ الناس بحسب الأحساب، والأنساب؛ فقُريشٌ كانت تفتخر على سائرِ العرب بأحسابها، وأنسابِها، ومن فخرِهم بأحسابِهم، وأنسابِهم أجاءوا إلى النبي-صلى الله عليه وسلم-؛ فقالوا: انسب لنا ربك؟

الله ابن مين؟ فأنزل اللهُ-عزّ وجل-: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الصمد:١-٤].

ويقولُ النبيّ-صلى الله عليه وسلم-: "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بفي النُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ".

وقد توَّعدَ النبي-صلى الله عليه وسلم- بالنارِ أقومًا يفتخرون بجُثي جهنَّم: يعني يفتخرونَ أُناسٌ هم أصلًا من حطبِ جهنم.

وَليسَّ الفتى مَنْ يَقُولُ كَانَ أبي وَكَمْ مِنْ أَصْلٍ رَفِيعْ	وإنَّما الفَتى مَنْ يَقولُ هَا أنَا ذَا ولكِن فَرْعهُ وَضِيعْ

فليست القضية قضية أحساب، ولا أنساب، إذًا الميزان لا ميزان قاروني صحيح، ولا فرعوني صحيح ، ولا ميزان قُرشي إيش الميزانُ؟ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] هذا هو الميزان الصحيح.

الميزان المالي أبطلهُ اللهُ في قوله:﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا ﴾ [العلق:١٥-١٧] ليس الأمر كما تظنون.

ليس من أعطيتهُ المال؛ فقد أحببتهُ، ورضيتُ عنه، وليسَ من قدرتُ عليه رزقَهُ، وضيَّقتُ عليهِ أبوابَ رزقُهُ أكونُ قد أبغضتُه كما في الحديث: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ مِنَ الدُّنْيَا" حديثٌ حسن.

أهذا هو الميزان الصحيح ميزانُ التقوى، ميزانُ الإيمان فأكرمُنا عند الله أتقانا، إذًا لماذا خلقنا الله في شعوبًا، وقبائِل؟ فذكرها اللهُ في كلمة واحدة: لتعارفوا فقط ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣].

يوم جاء ميزان التفضيل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٣] بأكرمِكُم، ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣] بأتقاكُم.

*** وممَّا تُربينا عليه هذه السورة أيضًا:**

النهيُّ عن المنة بالعمل.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] إلى أن قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات:١٧].

فما يوفقُك اللهُ–عزّ وجل– إليه من والعمل إنَّما هو محضُ توفيق من الله–عزّ وجل– لك أنتَ صلّيت، زكيّت، وأديتَ الحج، والعُمرة، وبررت بوالديك، وربيت اللحية، وحفظت القرآن، وعلَّمت الناس، وتعلَّمت، ونهيت عن المُنكر، وأمرت بالمعروف، ليس بحولِك، ولا بقوَّتِك، وإنَّما بفضل الله–عزّ وجل– عليك.

يقول الله–عزّ وجل–: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:١٧] يعني كلما استكثرتَ من العمل إياك أن تقوم في قلبِكَ مقامُ المنةِ علينا؛ فإنَّنا نحنُ الذين وفقناك، وهيأَّنَا لك أسباب الخير، ويسرنا لك تحصيلَ هذه الطاعة، والعبادة، ولولا توفيقُ الله–عزّ وجل– وهدايتهُ، ودلالتهُ لك لما فعلتَ هذهِ العبادة واللهِ ما تفعلها .

نحنُ الآن، ونحنُ مُجتمِعونَ في المسجد أَوَليس هُناك أُناس في دارِ البغاء، وفي دار الخنا، وعلى مُدرَّجات الملاعب قطَّعت أوقاتُهم، وترى ارتُفِعت أصواتهُم بالباطِل، أوَليسَ هُناك ناس في البارات يشربون الخُمور؟ فما الذي بيننا، وبينَ الله حتى يهدِينا، ويُضِلَّهُم، يوفِقناَ، ويخذِلهُم، إنَّما هو محضٌ التوفيق من الله–جلّ وعلا — الله الذي هدانا.

ولذلك يقول أهلُ الجنة: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣]؛ فانتبهوا لهذا! ولذلك يجبُ علينا أن نستشعِر في كُلِّ عبادةٍ نقومَ بها أن نستشعِرَ عظيمَ فضلِ الله علينا في هذهِ النعمة.

* ختمَ هذهِ السورة كما ابتدأها بإثبات عِلمِهِ–عزّ وجل– وإن لزِمنا دينُ الله–عزّ وجل– أنَّ الله عالمٌ بكُلِ شيء، وأنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض

ولا في السماء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات:١٨].

فاللهُ-عزّ وجل- هو العالمُ بالكُلّيات، والجزئيات، ولا يخفى على علمِهِ شيءٌ في الأرضِ، ولا في السماء:﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [المائدة:٥٩].

هُنالك لفتة جميلة، وهي أنَّ ختم السورة بالعلم، والبصر:﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات:١٨] دليلٌ على أنَّ الله لمَّا أمرنا بهذهِ الآداب.

وقرَّب لنا هذه الفضائل العظيمة التي ينبغي على المجتمعاتِ، والأُسر، والطوائف ، والأفراد القيام بها، أن يقوموا بها﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ ، ماذا سيفعلون فيها؟﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات:١٨].

يعني أنَّكُم هل ستقومون بما أمركُم اللهُ-عزّ وجل- بهِ أم لا؟ فإذًا الفضائلُ، والآداب قدامكُم الآن، وأنا سأُحسن ما تعملون: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]؛ فاللهُ بصيرٌ بما نعمل من هذهِ الآدابْ.

فنسأل الله أن يوفقنا، وإياكُم لكلِ خير، وأنْ يجعلنا ، إياكُم هُداةً مهتدين، لا ضالّين، ولا مُضلين.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِ العالمين .

وصلى الله وسلم على نبينا مُحمد .

❋❋❋

فهرس الموضوعات

* المسألة الأولى: ٢
* المسألة الثانية: ٤
الفائدةُ الأولى: حُرمةُ مخالفةِ الدليل........................ ٤
الفائدةُ الثانية.. ٦
الفائدةُ الثالثة.. ٧
*الأدبُ الثاني من هذه السورة: ١١
الأدبُ مع النبيِّ-صلى اللهُ عليه وسلم- ١١
وجوبُ قِتالُ البغاة مع الإمام ٢١
التذكير بأُخُوةِ الإيمان ٢٢
النهيُّ عن السخرية بإخواننا المؤمنين.................... ٢٣
النهيُّ عن سوءِ الظن في إخواننا المؤمنين ٢٦
النهيُّ عن الغيبة ٣٠
التربية على تحقيق الميزان الصحيح بينَّ الناس ٣٤
النهيُّ عن المنة بالعمل ٣٦